قِراءَةٌ فِي البُعْدِ التَّارِيخِيِّ لِسُورَةِ الرَّحْمٰنِ

دِراسَةٌ تأسِيسِيَّةٌ فِي تارِيخِ القُرْآنِ

أ.م.د.عادل عباس النصراوي

كلية التربية الاساسية– جامعة الكوفة

فحوى البحث

يبسط السيد الباحث الحديث في عرضه سورة الرحمن المباركة، جملة امور مهمة ومختلف فيها . مثل مكية السورة او مدنيتها، واي الرأيين ارجح على وفق بعض المعطيات التاريخية واهمها احداث صلح الحديبية.وفي البحث مناقشة وتفنيد لرأي تافه جاء به احد ادعياء التوثيق التاريخي، يذهب الى ان سورة الرحمن مصنوعة اشترك في صنعها مسيلمة الكذاب. كما يعرض البحث في جولة لغوية، اعجاز القرآن في هذه السورة وسر تكرر آية ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فيها، ويختتم البحث بالنتائج التي توصل اليها وقائمة المصادر التي اعتمدها.

مدخل:

النظر إلى الأشياء من جهات مختلفة وتسليط الأضواء على الزوايا المظلمة للأحداث يكشف عن كثير من الخفايا أو التعتيم، لكن النظر بعين واحدة ربما يأخذ ببعض القرّاء والباحثين إلى طرق مغلقة، فيكون هذا مبعثاً لشعور ينتابهم فيصابون بالعمى؛ وربما يكون عمىً دائمياً أو وقتياً بحسب الحالة الواردة على الذهن.

النصّ القرآني نصّ ليس كالنصوص اللغوية التي نعرفها، فهو ليس بشعر ولا نثر، إنَّه قرآن وهذا ما شهد به العلماء والمفكرون من نحو طه حسين وغيره، وإنّ هذه الرؤية للقرآن وهذا التمثيل الخاص به لم يكن بدافع انتمائي للقرآن أو للعروبة، وإنما العقل هو الذي دلّ على ذلك.

وبما أنَّ القرآن الكريم نصٌّ لغوي ومن طراز خاص جداً، فعند دراسته لكشف الدلالة لابد من النظر إليه بمنظار اللغة أولاً، ثم بالمناظير الأخرى، لأنَّ اللغة هي التي تملك مفاتيح النص الذي كُتب بها، مع عدم إهمال المقامات والوقائع الاجتماعية والظروف النفسية والبعد الثقافي للأمة وغيرها من العوامل الداخلة في كنف النص، إذ إنّ لكل هذه العوامل نصيباً من الدلالة يختلف من وضع إلى آخر في عموم النص، هذا عند دراسة النص دراسة موضوعية لا انتمائية، أو فئوية أو قراءة سياسية، لأن الأثر السياسي والانتمائي له خاصية تأويل النص وفق التبعية الفئوية المذكورة.

إنَّ الخلافات السياسية والصراعات والحروب تخلق أجواءً وتُقيم حواجز عالية تفصل فئات المجتمع الواحد إلى فئات متنافرة، فتحوّل العقيدة السياسية أو الأعراف الاجتماعية الخاصة بمرور الزمن إلى عقيدة دينية، وهذا مما يسبغ على محلل النص اللغوي صفة الانتماء لا الصفة الموضوعية عند تحليله لأي نصٍّ، فينظر الى الحياة من منظاره الخاص به فقط، مع إهمال كلّ الرؤى والمشاهدات التي يراها غيره، وربّما لا يقرّ لهم بها وإن كانت رؤى تُطابق الحقيقة العلمية؛ بسبب من التعتيم الفكري وضبابية النظرة.

فالرجوع للفطرة الإنسانية السليمة تُزيل شيئاً من تعتيم الرؤى، والضبابية

وتفتح آفاقاً ربّما كانت غير واضحة الملامح في بداية النظر للأشياء، ومع عدم الانحياز للذات أو العقيدة ستسمح لدخول رؤى أخرى تُوضع تحت منظار الفحص العلمي الدقيق وكل ذلك من أجل الكشف عن تجلّيات النص اللغوي بأسلوب علميٍّ خالٍ من التطرف، وممزوج بتجليات العقل والنفس الإنسانية التي تتوق دوماً إلى معرفة الحقيقة وآفاقها في الحاضر والمستقبل، مع الأخذ بتلابيب الماضي، فيكون للتاريخ من خلال ذلك أثره في توجيه الدلالة المطلوبة من النص.

لكن الحادثة التاريخية لا تكون ملزمة دوماً لفاحص النصّ ومحلِّله. إذا ما كانت غير متوازنة في نقلها، أو مخالفة للواقع اللغوي الذي وجد فيه ذلك النص، إذ أنَّ اللغة هي المفتاح الذي يفتح المغلق من النصوص لأنها تهيمن على النص من حيث الصياغة والبيئة وما تفرزه من صفاتها وأجوائها على النص، فضلا عن العامل الاجتماعي، فكل هذه العوامل تُعدُّ محدِّدات وموجّهات للدلالة التي يطلبها المتلقي لغرض الوصول إلى الحقيقة السابحة في أعماق النص.

هذه الآلية في كشف الدلالة اللغوية ربما تكون شاملة لكل نصٍّ قيد الدراسة سواء أكان نصاً قرآنياً أم شعرياً أم نثرياً، لأنها تستثمر الوقائع التي سبّبت وجود النص سواء أكانت المسببات ذاتية تتعلّق بأصل التكوين لذلك النص، أم كانت خارجية لها مساس في توجيه مسار الأحداث التي يولد النص في خضمّها.

لذلك كان منطلقُ البحث، في قراءتنا سورة الرحمن وأسسَ اللغة التي بُنيتْ عليها مجمل الآيات المكونّة لها، والبيئة التي وُلدت فيها لما لها من اثر في تحديد مسار الأحداث المؤلفة بمجموعها للصورة التي برزت بين الآيات القرآنية ثم تحديد الزمان والمكان المحتملين اللذين ولِدَ النص فيهما ـ أي مكة والمدينة ـ وبحسب روايات علماء التفسير وعلوم القرآن الكريم، فضلا عن دراسة أسباب النزول التي تمثل الواقعة التاريخية التي سبّبت وقوع النص ونزوله على الرسول الكريمﷺ وان كان هذا السبب لا يمثّل كل الدلالة التي ينتجها

النص المبارك، بل هو في واقع الأمر يمثّل دلالة جزئية من دلالاته، إذ أنَّ دلالة عموم اللفظ هي المهيمنة على مجمل الدلالات الفرعية في النص القرآني[1].

المبحث الأول

البعد الزماني -المكاني وأسباب النزول

الواقعة التاريخية دائماً ما ترتبط بزمان وقوع الأحداث المسيِّرة لها وبالمكان الذي وقع فيه الحدث الذي من أجله نزلت السورة أو الآية القرآنية، فيكون المكان والزمان من مستلزمات سبب النزول، لأنّ أيّ حدثٍ يحتاج إلى حيز زماني وحيز مكاني لوقوعه، فيسهم هذا السبب في بعض من دلالة النص القرآني؛ غير أنَّه لم يكن شاملاً لكل دلالته ـ كما أوضحنا ذلك من قبل.

لكن يجب أنَّ نكون حذرين تماماً في التعامل مع سبب النزول، فضلا عن تعدّد أسبابه للآية الواحدة، ولعل السبب في ذلك أنَّ هذه الأخبار التي تداولها علماء التفسير قد كُتِبتْ في وقت متأخر من بعد وفاة رسول الله ﷺ وانقطاع الوحي وموت الصحابة رضي الله عنهم، فاجتهد التابعون في كثيرٍ منها في البحث عمّا وراء الآيات، عن أسباب نزولها مسترشدين في ذلك بما يمكن أنَّ يرشح به النصُّ من إشارات تاريخية وعلامات لغوية ركَّبوا عليها أسباب نزول آياتٍ عديد[2].

غير أنَّ هذا ليس بمطّردٍ في كلِّ أسباب النزول، بل هناك أسباب لنزول آياتٍ من القرآن الكريم ليست من عمل صُناع الأخبار، فقد تواترت عَبْر السنين فوجد فيها علماء التفسير مادة صحيحة لتفسير الآية النازلة فيها، من نحو آية الولاية في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾[سورة المائدة: ٥٥]، النازلة في الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام باتفاق أهل الأخبار[3].

(١) ظ: مجلة ينابيع العدد ٥١، لسنة ٢٠١٣، موضوع الدلالة القرآنية بين خصوص السبب وعموم اللفظ، د. عادل عباس النصراوي: ١٠ -١٥.

(٢) ظ: أسباب النزول، بسام الجمل: ١٧٥.

(٣) ظ: الكشاف المنتقى في فضائل علي المرتضى، كاظم الفتلاوي: ٣٥ -٣٨، وقد ذكر المؤلف من المصادر التي وثّقت نزولها ما ينوف على (٧٠) مصدراً.

إن العامل الرئيس في توجيه صناعة أخبار أسباب النزول كان لتوفير الأجواء المناسبة والمناخات الملائمة في دراسة النص القرآني، لأن عمل المفسّر مندرجٌ دائماً في (إعادة تشكيل الظروف التاريخية لأسباب النزول) [٤]، لذا صنعوا أخبارا جاعلين أبطالها من الصحابة المعروفين ومتخذين من الرسولﷺ شاهدَ إثباتٍ على صحة ذلك، وفي بعضها تجد التعتيم والإعمام. فتجدهم اندفعوا إلى توضيح ما أُبْهِم من الكلام، وردّ الخطاب القرآني إلى مرجعياته التأريخية، وهذا أخذ بأيديهم إلى وضع أخبار تفسِّر أسباب نزول الآيات؛ لذلك نجد أنَّ بعض هذه الأسباب قد أُلْصِق بالنص، وقد تنبّه الفخر الرازي إلى ذلك في تفسيره قوله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴾ [سورة القيامة: ٣]، في دلالة الإنسان أهو إنسان معيّن أم لا[٥]؟.

ونتيجة لاختلاف الروايات في أسباب نزول الآيات والسور، فقد اختلفوا أيضاً في مكان نزولها وزمانه؛ فنجد في بعضها أنَّ الرواة يذكرون نزولها في مكة، ومنهم مَنْ يقول انها نزلت في المدينة، وبعضهم يرى أنَّ قسماً منها نزلت في مكة والآخر في المدينة وهكذا، وهذا يعكس مدى الصعوبة في إصابة حقيقة النزول هنا، أو هناك، وعليه يجب التثبُّت في ذلك وعدم الاعتماد على خبر دون خبر أو إهمال رواية والتشبّث بأخرى، بل أنَّ الطريق السليم الذي يجب أنَّ نسلكه هو اعتماد المعايير العلمية السليمة في فحص نصوص الروايات متناً وسنداً.

البعد الزماني -المكاني لنزول سورة الرحمن:

بعد هذه المقدمة نتساءل، هل أنَّ سورة الرحمن مكيّة أو مدنية، وكيف؟. نعم لقد اختُلِف في هذه السورة في كونها مكية أو مدنية، وهي تُعدُّ من السبع عشرة المختلف في تنزيلها، فقالت طائفة نزلت بالمدينة وأخرى بمكة، وعلّقت كل طائفة منهم على سبب كونها مكيّة أو مدنية؛

(٤) الفكر الاسلامي. قراءة علمية، د. محمد أركون: ١٥١.

(٥) ظ: التفسير الكبير، الرازي: ١٠/ ٧٢٢، أسباب النزول/ بسام الجمل: ١٨٠-١٨٥.

والأخبار الواردة على مكيتها أكثر من خبرٍ وهي:

١. ما روي عن جابر قال: (قرأ رسول الله ﷺ على أصحابه سورة الرحمن حتى فرغ، قال: مالي أراكم سكوتاً؛ للجنُّ أحسنُ منكم ردّاً، ما قرأت عليهم مرةً: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالوا: ولا بشيء من نِعَمِكَ ربّنا نكذّب، فلك الحمد)[٦]، وحديث الجن معروف بمكة، وقد روي هذا الحديث بعدّة طرق[٧]:

الأول: عن طريق هشام بن عمار، عن الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد عن عمار بن المُنكدر عن جابر رضي الله عنه. (وقد ذكر الحديث ابن كثير بقوله عمّن حدّث: (هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد عن زهير بن محمد)[٨]؛ وضعّفه الشيخ عبد الله الجرجاني في رجاله، إذ عَدَّ زهير بن محمد في الضعفاء[٩]، وكذلك الذهبي في ميزان الاعتدال[١٠].

الثاني: عن طريق سليمان بن أحمد الواسطي، ويكنى أبا محمدٍ، عن الوليد بن مسلم وقد ضعَّفه البخاري بقوله: (سليمان بن احمد بن محمد عن الوليد بن مسلم، فيه نظر سألت عبدان وقد حدّثنا عن سليمان بن أحمد الواسطي، هذا بالعجائب)[١١].

الثالث: عن طريق علي بن جميل عن الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد بن المُنكدر عن جابر، وأورد الحديث؛ وعلي بن جميل ذُكر في الضعفاء، لأنّه حدّث بالأباطيل[١٢].

(٦) ظ: الاتقان، السيوطي: ١/ ٢٧، الناسخ والمنسوخ، ابن سلامة (على هامش أسباب النزول للواحدي): ٢٩٥ -٢٩٦، الكشف والبيان، الثعلبي: ٧/ ٤٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ١٢٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٤/ ٢٦٩.

(٧) ظ: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٤/ ٢٦٩، الكامل في ضعفاء الرجال، عبد الله الجرجاني: ٣/ ٢١٩.

(٨) ظ: م. ن: ٤/ ٢٦٩.

(٩) ظ: الكامل، في ضعفاء الرجال، عبد الله الجرجاني: ٣/ ٣١٨.

(١٠) ظ: ميزان الاعتدال، الذهبي: ٣/ ١٢٣.

(١١) الكامل في ضعفاء الرجال، عبد الله الجرجاني: ٣/ ٢٩٢.

(١٢) ظ: م. ن: ٣/ ٢٩٢.

الرابع: عن طريق عبد الرحمن بن عثمان البكراوي الثقفي، وقد ذكره العقيلي بأنه كان مطروح الحديث، والبخاري يقول عنه كذلك(١٣).

إذن الطرق الأربعة في رواية حديث قراءة الرسول محمدﷺ لسورة الرحمن على أصحابه، أو قُرئت السورة بحضرته(١٤)، في مكة، قد سقطت لأجل وجود مناكير في سند الرواية لا يُعتَدُّ بروايتهم لكونهم مطروحي الحديث، أو يوردون الأباطيل، وعليه فإن مثل هذا الحديث لا يمكن الأخذ به أو بناء أحكام على كون سورة الرحمن مكية وفق ذلك.

٢. ما روي عن عروة بن الزبير عن أبيه قال: (أول من جهرَ بالقرآن بمكة بعد رسول اللهﷺ عبد الله بن مسعود، قال اجتمع يوما أصحاب رسول اللهﷺ، فقالوا: والله ما سمعت قريش بهذا القرآن يُجهر به قط، فمن رجل يُسمعهم؟. فقال عبد الله بن مسعود: أنا؛ فقالوا: نخشى عليك؛ إنّما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه؛ فقال: دعوني، فإنّ الله سيمنعني، ثم قام عند المقام فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم» «الرحمن» ؛ رافعاً صوته، وقريش في أنديتها، فتأمّلوا وقالوا: ما يقول ابن أم عبد؟ ثم قاموا إليه فجعلوا يضربونه وهو يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله؛ ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثّروا في وجهه، فقالوا: هذا الذي خشينا عليك(١٥).

بمراجعة بسيطة لمجمل الحديث تبيّن ضعفه وعدم صموده أمام الحقيقة العلمية، وذلك أنهم في هذا الحديث يروون أنَّ النبيﷺ كان قد جهر بالقرآن على رؤوس قريش بمكة، وهذا صحيح، وروايات عديدة روت ذلك منها ما قرأه النبيﷺ على الوليد بن المغيرة عندما جاءه ليسمع منه (فقال: إقرأ عليَّ، فقرأ عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ

(١٣) ظ: الضعفاء الكبير، العقيلي: ٢/ ٣٣٥.
(١٤) ظ: الكشف والبيان، الثعلبي: ٦/ ٤٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٧/ ١٢٨.
(١٥) ظ: تاريخ الطبري: ١/ ٥٤٩، أسد الغابة، ابن الأثير: ٣/ ٣٩٣.

﴿وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة النحل: ٩٠]، قال: أعِدْ عليَّ، فأعادَ عليه النبي ﷺ، فقال: والله إنَّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وأنّ أسفله لمغدق، وما يقول هذا بشر[١٦].

وكذلك ما روي عن عتبة بن الوليد عندما جاء إلى رسول الله ﷺ وعرض عليه الأموال والسيادة على قريش، فقال له رسول الله ﷺ: (اقد فرغت يا أبا الوليد؟. قال: نعم؛ قال: فاسمع منّي، قال: افعل؛ قال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [سورة فصلت: ١-٤]، ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها عتبة، أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها يستمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة فسجد، ثم قال: قد سمعتَ يا أبا الوليد، فأنت وذاك[١٧].

هاتان الروايتان تثبت أنَّ قراءة النبي محمد ﷺ للقرآن في مكة؛ لم يسبقه أحدٌ في ذلك، ولا وقعت من غيره قبله، في حين أنَّ الرواية التي بين أيدينا تذهب إلى أنَّ عبد الله بن مسعود هو أول من جهر بالقرآن في مكة.

إذن أين يكون جهر الرسول ﷺ بالقرآن وقراءته على الوليد بن المغيرة، وعلى عتبة بن الوليد، فلو صحّ الخبر لكانت صياغته كما يأتي: (إن أصحاب رسول الله ﷺ اجتمعوا، فقالوا: ما سمعت قريش القرآن يُجهر به من غير النبي ﷺ فمن رجل منّا يسمعهم)؟. لكانت العبارة أوثق وأصحّ، لأنّ الراوي ذكر أنَّ (أول من جهر بالقرآن بمكة بعد رسول الله ﷺ عبد الله بن مسعود، فههنا تناقض في صياغة عبارات هذه الواقعة، وهذا مما يُضعفها ويُبعد الأخذ بها في تقرير أنَّ سورة الرحمن مكية.

فضلا عن ذلك فقد وردت الأخبار المروية عن عبد الله بن مسعود أنه ينسب

(١٦) نهاية الأرب، النويري: ١٦/ ٢١٣، ظ: دلائل الإعجاز، الجرجاني: ٣٨٨.

(١٧) نهاية الأرب، النويري: ١٦/ ٢٠ -٢١١.

سورة الرحمن إلى المدينة[١٨]، وأورد السيوطي أحاديث تذهب إلى مدنيتها مروية عن البيهقي في دلائل النبوة، وابن الضريس في فضائل القرآن وأبي عبيدة وأبي بكر بن الأنباري[١٩].

وربّما كان لتعدّد طرق رواية الأحاديث الواردة في سورة الرحمن، وعدم التيقّن من سلسلة سندها، وتقسيمها بين مكة والمدينة، كلّها عوامل أخذت بالواحدي إلى عدم ذكر سببٍ لنزولها في كتابه، حتى أنَّ السيوطي في لباب النقول لم يذكر موضع نزولها، في حين ذكر سبب ذلك في أبي بكر نقلاً عن كتاب العظمة عن عطاء[٢٠]، في قوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [سورة الرحمن: ٤٦]، ومنهم من خمّن كونها مكية من دون أنَّ يقطع بذلك، من نحو أبي النصر بن سلامة حين قال: (سورة الرحمن -عز وجل -وهي من السبع عشرة المختلف في تنزيلها، قالت طائفة نزلت بالمدينة، وهي إلى تنزيل مكة أشبه)[٢١]، أي أنّها تشبه السور المكيّة من حيث قصر الآيات من دون أنَّ ينسبها اليها.

إذن نخلص إلى نتيجة هي أنَّ الروايات المخرومة السند في رواتها وعدم ضبط النص وتناقضه مع نفسهِ، تبيّن مدى الصنعة في صياغة الأخبار والتهالك في روايتها كيفما كان.

لذا يجب علينا -كدارسين للنص القرآني -أنَّ نكون حذرين في قبولها، والتأنّي في قراءتها، وفحص لغتها من حيث سبك العبارة وتماسكها وقوة إيحاء ألفاظها، لأنّ أخذ الروايات وقبول الأخبار على عواهنها قد يوقع الباحث في مزالق الهاوية، ثم دفن الحقيقة الغائرة في أعماق النص المدروس.

ولعلّ استعمال المنهج اللغوي خير دليل للوصول إلى الحقيقة، لأنّ اللغة نظام متماسك لا يقبل الغلط والزيغ، ولا يمكن التلاعب به، فالروابط النحوية والصرفية والصوتية وفنون البلاغة، كلّها وسائل

(١٨) ظ: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٧/ ١٢٨، البحر المحيط، أبو حيان: ٨/ ٢٦٦.
(١٩) ظ: الإتقان، السيوطي: ٢/ ٢٣.
(٢٠) ظ: لباب النقول، السيوطي: ١٨٦.
(٢١) الناسخ والمنسوخ، ابن سلامة: ٢٩٥.

ضابطة للنص اللغوي ومهيمنة على دلالته، وعن طريق ذلك يمكن التوصّل إلى الواقعة التاريخية التي أنتجت النص.

كذلك يمكن من خلال استعمال المنهج اللغوي أنَّ نعرف مدى علاقة سبب النزول المروي للآية أو مكان نزولها، لأنَّ اللغة تمثّل دالة موجهة لكل ذلك لمن أوتي حظاً من العلم بها وبفنونها.

أسباب نزول سورة الرحمن:

بعد أنَّ ثبت عدم نزول سورة الرحمن بمكة من خلال الروايات المروية عن طريق الصحابة عن رسول الله ﷺ؛ دعنا نسلك سبيلاً آخر لتوخّي الحقيقة مضافاً إلى ما سبقه لعّله يوثّق عرى ما توصل إليه البحث، مستعيناً لذلك بما جاء في النص القرآني الكريم وبما أحتجَّ به علماء التفسير من سبب النزول.

فقد ورد في الأثر أنَّ هناك روايتين في سبب نزول سورة الرحمن، نقلهما ابن عطية (ت٥٤٦هـ)، في تفسيره (المحرر الوجيز في كتاب الله العزيز)، وأبو حيان الأندلسي(ت٧٤٥هـ) في تفسيره (البحر المحيط)، إذ ذُكر فيهما سببان لنزولها، أحدهما، أنّها مكيّة، والآخر يذهب إلى كونها مدنيّة، وقد صرّح ابن عطية بمكية السورة[٢٢]. في حين لم يدلِ أبو حيان الأندلسي برأي قاطع في أيّ السببين هو الصحيح، ولم ينسبهما إلى أيّ المدينتين[٢٣]، والروايتان هما:

الرواية الأولى: قال ابن عطية: (وإنما نزلت حين قالت قريش: ﴿ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾؟. ﴿ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا ﴾)[٢٤]؟. وعزز مكيتها ما نقل في السيرة النبوية من أنَّ ابن مسعود جهر بقراءتها في المسجد، كما ذكرنا ذلك من قبل.

في حين رواها أبو حيان فقال: (وسبب النزول، قال مقاتل: إنّه لمّا نزل: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ ﴾ [سورة الفرقان: ٦٠]!. قالوا: ما نعرف الرحمن، فنزلت: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾ [سورة الرحمن: ١ -٢][٢٥].

من ظاهر الرواية يبدو أنَّ قريشاً تجهل (الرحمن)، وإنّ هذه اللفظة غير

(٢٢) ظ: المحرر الوجيز، ابن عطية: ٥/ ٢٢٣.
(٢٣) ظ: البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٢٦٦.
(٢٤) المحرر الوجيز، ابن عطية: ٥/ ٢٢٣.
(٢٥) البحر المحيط، أبو حيان: ٨/ ٢٦٦.

معروفة عندهم، كما يذهب إلى ذلك رواتها ومفسروها، فأنزل الله تعالى سورة الرحمن ليعرّفهم بالرحمن، وهذا ظاهر ما يقولون، ومعلوم لدينا أنَّ لفظ الجلالة (الرحمن) قد ورد في القرآن الكريم ستاً وخمسين مرةً، وفي كلّها معرّفاً بـ(أل) التعريف، فضلا عن (بسم الله الرحمن الرحيم) في مختلف سور القرآن الكريم، ومنها المكي ومنها المدني؛ وفي قوله سبحانه تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾[سورة الفرقان: ٦٠]، كان الخطاب موجهاً لقريش يأمرهم بالسجود للرحمن (تعالى) معرّفاً بأل التعريف، وهذا إنما جاء لغرض ما، إذ إنَّ من أغراض التعريف بـ(أل) التعيين.

وعليه فأنّ (الرحمن) لم يكن مجهولاً لدى القرشيين[٢٦]، بحسب العرُف اللغوي الذي نزل به القرآن، فضلا عن ذلك فان هناك من تسَمّى بـ(عبد الرحمن) في قبائل العرب، منهم عامر بن عتوارة، سمّى أبنه «عبد الرحمن» وقد وردت هذه اللفظة في الشعر كثيراً. قال حاتم الطائي[٢٧]:

كلوا اليوم من رزق الإله وأَيْسِرُوا
وإنَّ على الرحمن رزقَكُمُ غدا

وأنشد الشنفرى قوله[٢٨]:

ألا ضَرَبَتْ تلك الفتاةُ هجينَها
ألا ضربَ الرحمنُ ربّي يمينَها

هذا وقد ذكر اليعقوبي أنَّ تلبية «قيس عيلان» كانت على النحو الآتي:

(لبّيك اللهم لبّيك، لبّيك أنت الرحمن، أتتك قيس عيلان، راجلها والركبان)[٢٩].

وإنّ تلبية عك والاشعريين كانت[٣٠]:

(نحجُّ للرحمن بيتاً عجباً مستتراً مضبباً محجباً).

وقال ابن منظور: (وحُكِيَ عن طي وكلب: اطلبوا من الرحمن)[٣١]، وحُكي

(٢٦) وللمزيد لمعرفة أصل كلمة الرحمن في قبائل العرب كتب الأنساب الجاهلية.

(٢٧) ظ: جامع البيان، الطبري: ١/ ٤٤.
(٢٨) ظ: م. ن: ١/ ٤٤.
(٢٩) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢٥٥.
(٣٠) م. ن: ١/ ٢٥٦.
(٣١) لسان العرب، ابن منظور: ١٣/ ٢٠١. منن.

الاسم كذلك عن تغلب[٣٢].

هذه أدلة سقناها على أنَّ (الرحمن) لم يكن غريباً عند العرب فضلا عن القرشيين، ولم يكن مجهولاً حتى يسألوا عنه، لكن قولهم عندما أُمِروا بالسجود له: ﴿ وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾، لم يكن سؤالاً عن الرحمن كَعَلَم أو ذات، فلو كان السؤال كذلك لقالوا: من الرحمن؟. لأنّ (مَنْ) (تختصّ بأولي العلم سواء كانت موصولة أم استفهامية أم شرطية أم غير ذلك)[٣٣]، في حين أنَّ (ما) (تقع على ذوات مالا يعقل، وعلى صفات مَنْ يعقل)[٣٤]، وعليه فأنّ سؤال القوم (وما الرحمن) كان سؤالاً عن صفاته (تعالى). وأما كونه ذاتاً، فمعروف ومعلوم لديهم.

نستنتج من هذا ما يأتي:

١. إنّ قريشاً لم تكن تجهل (الرحمن)، فهو اسم علم في أدبياتها، وأشعارها؛ وأما سؤالهم فلم يكن عن الرحمن، كذات، وإنما كان سؤالاً عن صفته، وهذا ما تنبَّه إليه ابن عربي، حين قال: (إنما جهلوا الصفة دون الموصوف)[٣٥].

٢. إنَّ استعمال (ما) يحتمل عدة معانٍ في هذا السياق، فهي فضلا عن كونها اسم موصول يدلّ على صفة الموصوف للعاقل، فهي تحتمل كذلك معنى النفي، بمعنى أنهم عندما سألوا عن صفة الرحمن مستنكرين السجودَ له عندما أُمِروا بذلك؛ لأنّهم كانوا يعتقدون في السجود ذلّة واستكانة فأبوا ذلك، لذا أَتْبَعَ تعالى هذا السؤال بقوله: ﴿ وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾، لمّا شعروا- بحسب ظنّهم وعاداتهم -استهانةً بهم واستصغاراً لشأنهم؛ وكأنّ معنىَ قولهم ذاك هو: وما الرحمن حتىَ نسجد له ونعفرّ وجوهنا بالتراب؟.

لذا كان قول بعض المفسرين أنّ سبب نزول سورة الرحمن لإيضاح معنىَ الرحمن وجواباً لسؤالهم عنه كلاماً غير موفَّق وسبباً غير قائم لتعارضه مع سنن العربية في نحوها وقواعدها التي عرفتها قبائل العرب وجهلها المتحذلقون، بل هو

(٣٢) ظ: التبيان، الطوسي: ١/ ٢٩.
(٣٣) معاني النحو، د. فاضل السامرائي: ١/ ١١٩.
(٣٤) م. ن: ١/ ١٢٠.
(٣٥) ظ: البرهان، الزركشي: ٢/ ٣٠٩.

إقحام شيء على شيء من غير لونه وصنفه وطبيعته، وبذلك تكون حجة مَنْ قال بمكية السورة ساقطة بسبب سقوط ما استندوا إليه في ذلك.

الرواية الثانية: وقال ابن عطية: (وقال نافع بن أبي نعيم وعطاء وقتادة وكريب وعطاء الخراساني عن أبن عباس: هي مدنية، نزلت عند إبانة سهيل بن عمرو وغيره أن يكتب في الصلح «بسم الله الرحمن الرحيم»)[٣٦]، وروى أبو حيان الأندلسي هذا بقوله: (وقيل مدنية؛ نزلت إذ أبى سهيل بن عمرو وغيره أن يُكتبَ في الصلح «بسم الله الرحمن الرحيم»)[٣٧].

هذه الرواية الثانية التي ذكرها علماء التفسير في سبب نزول سورة الرحمن في أنها بالمدينة وذلك بسبب نزولها بعد صلح الحديبية في العام الثامن من الهجرة النبوية المباركة الذي عُقدَ بين رسول الله ﷺ وموفد قريش له، سهيل بن عمرو، فقد نقل الطبري في تأريخه عن علقمة عن قيس النخعي عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: (دعاني رسول الله ﷺ فقال: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم، فقال رسول الله: اكتب: «باسمك اللهم»)[٣٨].

في كلا الروايتين لم يكن خطاب سهيل بن عمرو خطابا متشنّجاً، وإنما كان رداً عقلانياً، إذ عبَّر عمّا في نفسه من عدم معرفته بالرحمن، من غير تعنّتٍ أو استنكار أو استهجان، كما كان خطاب قريش المتزمت قبل الهجرة في قوله تعالى: ﴿وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾.

ثم أنَّ الخطاب العام في عموم الحدث كان خطاب مصالحةٍ، لا خطابَ منافرةٍ وتشنّج، وهذا الجو الطيّب الذي ساد الوضع العام سواء عند المسلمين أم عند القرشيين قد هيّأ لنزول سورة الرحمن لتعرف قريش صفاته التي جهلوها، ونعمه التي لا حدود لها، لأنَّ الرحمن على صيغة «فعلان» وهذه صيغة مبالغة لمن كثر منه الفعل حتى أصبح له سمة مميّزة. فيما كان (الرحيم) على زنة «فعيل» تعطي

(٣٦) المحرر الوجيز، ابن عطية: ٥/ ٢٢٣.
(٣٧) البحر المحيط، أبو حيان: ٨/ ٢٦٦.
(٣٨) البداية والنهاية، ابن كثير: ٤/ ١٧٥.

المتصف بها دلالة المنتج للرحمة.

ولهذا السبب عدّد الله تعالى في سورة الرحمن نِعمه التي ينعمها على عباده المؤمنين وكأنّه يدعو من حضر الحديبية من قريش من خلالها إلى الرجوع إلى الله والإنابة إليه، فكأنّ سورة الرحمن هدية الله تعالى إلى المؤمنين في الحديبية إكراماً لهم وتهنئة على النصر، فهي بحق عروس القرآن.

المبحث الثاني

البُعْدُ اللغوي والبيئي في سورة الرحمن

المحور الأول «لغة السورة»:

قلنا إنَّ الانتماء البيئي أو المكاني له أثره في تكوين الشخصية اللغوية لمستعمل اللغة، فنجد البدوي يستعمل ألفاظاً ذات وقعٍ حادٍ على الأذن من خلال التفخيم والتشديد وغيره من صور النطق، وهذا يكون بالصوت واختيار المعنى المناسب لهذه الحالات، لأنَّ البدوي غالباً ما يميل إلى حياة الخشونة بسبب من العوامل البيئية التي يعيشها، في حين تجد المتحضّر ينحو إلى التسهيل وفك الإدغام وغيرها من عوامل السهولة، لأنَّ الحضري بطبعه غالباً ما يميل إلى حياة الدعة والاستقرار.

لذا فأنّ واضع النص اللغوي لابُدَّ من أن يترك أثراً من خصائص لغته فيما يكتب أو يقول، فتظهر جليّةً في ألفاظه ومعانيه ومتأثّراً ببيئته، ويأتي ذلك طوع ذاته لا تكلّفاً ولا تعمّداً، لأنَّ اللغة تشكّل جزءً من مكوناته العقلية والذهنية، فعندما يريد أن يظهر معنى من المعاني فإنّه سيختار ما يُناسبه من مخزونه اللفظي رهواً ومن طوع الخاطر، لأنّ الإرادة ستكون هي الحاكمة في التصرّف وتركيب الألفاظ على المعاني؛ فمن سلمت سليقته يأتي كلامه سليماً، ومن عبثتْ يأتي عليلاً خائراً.

أمّا جوابنا على من قال ببشرية سورة الرحمن، وأنها من تأليف الرسول محمدﷺ ومسيلمة الكذاب، أو كما يسمّيه بـ(مسلمة الحنفي)، وأنها (إنما جاءت نتاجاً لدمج نصّين متشابهين في نصٍّ واحد، وهو ما تمَّ اعتماده في القرآن أيام عثمان بن عفان، فالآيات التي تحمل الرقم (٦٢ -٧٧) هي نفس الآيات التي تحمل الرقم (٤٦ -٦٠)،

يبدأ أحد النصّين بالآية: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾[سورة الرحمن: ٤٦]، ويبدأ النص الثاني بالآية: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾[سورة الرحمن: ٦٢]، ويستمر النصّان ليس بين الاثنين أيّ اختلاف إلاّ في كلمة «خيام»[٣٩]، وبعد ذلك يعاود القول فينسب النصين إلى صاحبيهما، فيقول: (إن هذا الدمج البيّن إنّما كان في البدء نصين منفصلين احدهما لصاحب مكّة -أي النبي محمدﷺ والآخر لصاحب اليمامة -أي مسيلمة الكذاب- وأنّ أحدهما كان معارضاً للآخر، ولا أرى نصّ مكّة إلا لاحقاً لنصّ اليمامة، وإنّه تمَّ دمجهما معاً لتشابههما)[٤٠].

أقول: لقد شهد العرب قبل الإسلام وبعده بفصاحة النبي محمدﷺ وانه أفصح العرب كافة وقد نقل السيوطي(ت٩١١هـ)، في المزهر «في معرفة الفصيح من العرب» حيث قال: (أفصح الخلق على الإطلاق سيدّنا ومولانا رسول اللهﷺ حبيب ربِّ العالمين جلَّ وعلا)[٤١]، ثم نقل حديثاً عن الرسولﷺ فقال: (أنا أفصح العرب)، رواه أصحاب الغريب[٤٢]، وقال أبو عبيدة (ت٢١٠هـ)، عند ذكره أفصح القبائل: (وأحسبُ أنَّ أفصح هؤلاء بنو سعد بن بكر، وذلك لقول رسول اللهﷺ: أنا أفصح العرب بيد أنّي من قريش، وإنّي نشأتُ في بني سعد بن بكر -وكان مسترضعاً فيهم)[٤٣].

وكانت العرب تفد على رسول اللهﷺ فكان يخاطبهم جميعاً على اختلاف شعوبهم، وقبائلهم واختلاف بطونهم وأفخاذهم وعلى ما في لغاتهم من اختلاف الأوضاع وتفاوت الدلالات في المعاني اللغوية، في حين كان أصحابهرضي الله عنهم يجهلون من ذلك أشياء كثيرة[٤٤]، ونُقل عن الإمام علي بن أبي طالبعليه السلام عندما سمعه يُخاطب

(٣٩) مسلمة الحنفي، قراءة في تاريخ محرم، جمال علي الحلاّق: ١٠٢.
(٤٠) مسلمة الحنفي، قراءة في تاريخ محرم، جمال علي الحلاّق: ١٠٣ -١٠٤.
(٤١) المزهر، السيوطي: ١/ ٢٠٩.
(٤٢) م. ن: ١/ ٢٠٩.
(٤٣) م. ن: ١/ ٢١٠.
(٤٤) ظ: تاريخ آداب العرب، الرافعي: ١/ ٣٢٣.

وفد بني نهد، فقيل له: (يا رسول الله، نحن بنو أبٍّ واحدٍ، ونشأنا في بلد واحد، وإنّك لَتُكَلِّم العرب بلسان لا نفهم أكثره)[٤٥]، وروى البيهقي أيضاً في شُعَب الإيمان عن محمد بن إبراهيم بن الحرث التيمي: (أنّ رجلاً قال: يا رسول الله ما أفصحك!. فما رأينا الذي هو أعْربُ منك، قال: حقّ لي، فإنّما أنزل القرآن عليَّ بلسانٍ عربيٍّ مبين)[٤٦]؛ فهذه دلائل على فصاحته، ذكرها أهل الحقّ دون مواربة أو تزلّف.

ولكن انظر إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[سورة الأعراف: ١٨٩]، فعبّر تعالى عن إتيان الرجل المرآة بالتغشّي وهو في غاية الروعة والبلاغة ولا يمكن لأحد أن يصف تلك الحالة بهذه الصورة الرائعة وقد قال النبيﷺ في ذلك أيضاً قوله: (أنّه قال لامرأة رفاعة القرظيّ: «حتى تذوقي عُسيلتَهُ ويذوق عُسيلتكِ»، شبّه لذة الجماع بذوق العسل، فاستعار لها ذوقاً)[٤٧]، فهل مِنْ فارق في التعبيرين عن ذلك المضمون؟!.

إنّه فرق شاسع كالمسافة بين الأرض والسماء؛ ومَن عِندَهُ أدنى مسكة من عقل ليرى اختلافاً واضحاً بين قوله تعالى وحديث رسولهﷺ من حيث البلاغة والتعبير عن المعنى وإظهار جودة اللفظ وغيرها، إنّه كلام الله تعالى لا غير.

إذن ما جاء في القرآن الكريم هو قطعاً كلام الله وليس من صُنع النبي محمدﷺ أو أيٍّ من البشر، وإنّما حمله تعالى لأفصح خلقه لكي ينشره على الناس كافة.

وأما بطلان ما نُسِبَ من سورة الرحمن لمسيلمة الكذاب فيتّضح من وجوه:

الأول: إنّ مسيلمة الكذاب من بني حنيفة، ولم ينهل من لغتهم في القرآن إلاّ ألفاظاً قليلة، ذكرها علماء التفسير وعلوم القرآن في أربع سورٍ، اثنتان مكيتان، هما

(٤٥) كنز العمال، المتقي الهندي: ٧/ ٨٤.
(٤٦) المزهر، السيوطي: ١/ ٢٠٩.
(٤٧) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير: ٣/ ٢٣٧.

سورة القصص والزخرف، والاثنتان الأخريان مدنيتان هما سورة النساء والمائدة، فممّا جاء منها قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡ﴾[سورة النساء: ٩٠]، فحصرت بمعنى ضاقت بلغة أهل اليمامة(٤٨) التي يسكنها بنو حنيفة، ومنها أيضاً في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾[سورة المائدة: ١]، فالعقود تعني العهود بلغة بني حنيفة(٤٩). ومنها كذلك قوله تعالى: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ﴾ [سورة القصص: ٣٢]، فالجناح بمعنى اليد، والرهب تعني الكُم؛ بلغة بني حنيفة(٥٠).

فها هي الألفاظ التي أخذت من لغة بني حنيفة، وضمّتها لغة القرآن في معجمها؛ وهذا يُوحي أن القرآن قد ألغى بذلك ما يُقال بالمناطقية في اختيار الألفاظ والإقصاء، مع أنّ بني حنيفة كانوا الأشدّ على رسول الله ﷺ من بين قبائل العرب.

وقد يبدو أن عدد الألفاظ قليل بالنسبة لباقي القبائل العربية وحواضرها، لكن هذا العدد واقع مثله في بعض قبائل العرب الأخرى من غير بني حنيفة أيضاً.

فهذا ما ورد في القرآن من ألفاظ لغة بني حنيفة على ما ذكره علماء التفسير؛ ولم يرد منها شيء في سورة الرحمن.

وعوداً على بدء، فلو كانت هذه السورة المباركة أو بعضها من تأليف مسيلمة الكذاب لكان للغة بني حنيفة الحظ الأوفر منها، في حين لم نجد من ألفاظها شيئاً يُذكر؛ لأنّ واضع النص لابدَّ من أن يستعين بلغة قومه في ذلك، وخاصة أنّ العرب آنذاك كانوا شديدي الولاء للقبيلة، فكيف خلت سورة الرحمن من ألفاظ لغة بني حنيفة تماماً، أو لماذا لم يضمّن مسيلمة الكذاب، ألفاظاً من لغة

(٤٨) ظ: لغات القرآن المروية عن أبي عباس، ابن الحنفي: ٥٧.

(٤٩) ظ: م. ن: ٦٠، التبيان في تفسير غريب القرآن، ١/ ١٧٦.

(٥٠) ظ: م. ن: ١١٩/ ١٢٠. روح المعاني، الآلوسي: ٢٠/ ٧٦.

قبيلته فيها، وخاصة في جزئها الذي سُمّي بالريفي، الذي تأثَّث على أصغر ما تنبته الأرض من الشجر والفاكهة والنخل ذات الأكمام والعصف والريحان التي تشتهر بها اليمامة موطنه؟!!.

فلم نجد حتى من هذه الألفاظ المسماة (ريفية) للغة بني حنيفة منها، وكان الأَوْلَى بمسيلمة أنّ يستعين بلغته فيعبّر عن هذه الألفاظ القرشية بشيء من ألفاظ بني حنيفة، فمثلاً يسمي النخلة بالخضعة وهي من لغته[٥١].

ومما يضعف فصاحة مسيلمة الكذاب أنّه من بني حنيفة، وهذه القبيلة من قبائل اليمامة وهم أهل مدر وفي أطراف الجزيرة العربية.

وكان علماء العربية لا يأخذون اللغة والغريب (ممّن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين من حولهم، فأنه لم يؤخذ من لخم ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط، ولا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام، وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية، ولا من تغلب واليمن؟. فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان، ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس، ولا من عبد القيس وأزد عمان؛ لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وأهل الطائف؛ لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم)[٥٢]، فعُدّت قبيلة بني حنيفة ممن لا يؤخذ عنها اللغة وغريبها لمخالطتهم الأعاجم لأن نقاء اللغة وصفائها وفصاحتها تكمن في عدم اختلاط متكلميها بالأعاجم.

لذا نجد ما يسمى بقرآن مسيلمة ما هو إلا أسجاع جاءتها بشكل لا يشبهه؛ لأنّ (الطبيعة البشرية لكلامه تأخذ به بعيداً عن طبيعة القرآن الإلهية، قال مصطفى الرافعي: (إنّ القرآن الكريم إنما ينفرد بأسلوبه، لأنّه ليس وضعاً إنسانياً البتة، ولو كان من وضع إنسان لجاء على طريقة تشبه أسلوب من أساليب العرب

(٥١) ظ: لسان العرب، ابن منظور: ٨/ ٧٤ – خضع.

(٥٢) المزهر، السيوطي: ١/ ٢١٢.

أو من جاء بعده إلى هذا العهد)[٥٣]، لذلك لمّا سمعه بلغاء العرب من نحو عقبة بن الوليد، والوليد بن المغيرة أصغوا إليه وأُفْحِموا وانقطعوا دونه، وقد قادتهم لذلك سليقتهم اللغوية وذوقهم في فهم اللغة ودلالاتها، فتحيّروا من ذلك فاستهوته نفوسهم فأبوا معارضته (لأنهم رأوا جنساً من الكلام غير ما تؤديه طباعهم، وكيف لهم في معارضته بطبيعة غير مخلوقة؟. ولما حاول مسيلمة أن يعارضه جعل يطبع على قالبه، فجاء بشيء لا يشبهه ولا يشبه كلام نفسه وجنح إلى أقرب ما في الطباع الإنسانية، وأقوى ما في أوهام العرب من طرق السجع، فأخطأ الفصاحة من كل جهاتها)[٥٤].

إذن كان لنزول القرآن بلغة قريش العالية الفصاحة أثره في جذب العرب أصحاب السليقة النقية، لأنهم وجدوه على غير ما ألفوه من لغتهم قال الرافعي: (وهذه حكمة بالغة في سياسة أولئك الجفاة وتآلفهم وضم نشرهم، فانّ هذا القرآن لو لم يكن بلسان قريشٍ ما اجتمع له العرب البتة ولو كانت بلاغته مما يميتُ ويُحيي)[٥٥].

إذن قرشية لغة القرآن الكريم تدحر وجود مسيلمة وتلغي أثره في وضع شيء من القرآن -كما يدعي المدَّعون- ولو لفظة واحدة منها لأن عدم فصاحة قبيلته مما يشوّه لغة القرآن الذي نزل بأفصح اللغات وأوقعها جرساً في النفوس وأبلغها في المعنى والدلالة وأقربها لسليقة العرب الفصحاء الانقياء.

الثاني: إنّ ما يسمى بقرآن مسيلمة لم يصدر عن الله تعالى، ولو صَدَرَ عنه سبحانه لأصغت إليه الأسماع، ولتهاوت إليه النفوس، ولتذوّقه البلغاء من العرب قبل عامتهم؛ والعربي بفطرته السليمة وسليقته اللغوية النقية يميّز الكلام، ويعرف مقامه، ومصدره قال الباقلاني(ت٤٠٣هـ): (سأل أبو بكر الصديق رضي الله عنه أقواماً قدموا عليه من بني حنيفة، عن هذه الألفاظ -يعني قرآن مسيلمة -فحكوا بعض ما نقلناه، فقال

(٥٣) تاريخ آداب العرب، الرافي: ٢/ ٢٠٣.
(٥٤) م. ن: ٢/ ٢٠٤.
(٥٥) م. ن: ٢/ ٦٢.

أبو بكر: «سبحان الله؟. ويحكم، إن هذا الكلام لم يخرج عن إلٍّ، فأين كان يُذهب بكم»... ومعنى قوله «لم يخرج عن إلّ» أي عن ربوبية، ومن كان له عقل لم يشتبه عليه سخف هذا الكلام)[٥٦].

ومما كان يزعم أنه نزل من السماء قوله[٥٧]: (والليل الأطخم، والذئب الأدلم، والجذع الازلم، ما انتهكت أسيد من محرم)، وذلك كان عند ذكره في خلاف وقع بين قومٍ من أصحابه!. ومنه أيضاً: (والليل الدامس، والذئب الهامس، ما قطعت أسيد من رطبٍ ولا يابس)!، وكان يقول أيضاً في قراءته: (والشاء وألوانها، وأعجبها السّود وألبانها، والشاة السوداء واللبن الأبيض، إنه لعجب محض، وقد حرم المذْق، فما لكم لا تجتمعون)، وكان يقول أيضاً: ضفدع بنت صفدعين، نقّي ما تنقّين، أعلاك في الماء، وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين، لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريش قوم يعتدون)!.

وغيرها من هذه السخافات التي لا تعدو أن تكون لقلقة لسان وترديد ببغاء ولا فائدة منها، وأن هي إلاّ سجع كهان، ربما هناك من كهان العرب من يفوقه بلاغة وحسناً؛ فأين كلامه من الخطاب الإلهي الذي أعجز الناس أن يأتوا ولو بعشر سورٍ من مثله وهذا ليس من المقارنة في شيء، فأنّا نأبى أن نقارنه بكتاب الله تعالى، ولكن انظر إلى قوله تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [سورة النمل: ١٨]. فستجد فيها من الايحاءات العلمية ما تعجز الافهام عن إدراكه حتى عصور متأخرة، فقال «لا يحطمنكم» ولم يقل: «لا يحطّمنكّم» بتشديد الطاء، فوجد العلم الحديث أن النملة كائن يغلب عليه الجفاف فعبرّ عن ضعفها وجفافها بقلة القوة في التحطيم، فأنهى التضعيف في الطاء، ثم أشار إلى لغة النمل التي هي ليست كاللغات

(٥٦) إعجاز القرآن، الباقلاني: ١٥٧ -١٥٨، ظ: النهاية، ابن الأثير: ١/ ٦١، لسان العرب/ ابن منظور: ١/ ١٨٧.
(٥٧) ظ: م. ن: ١٥٦ -١٥٧.

المحكية، وإنما هي مواد كيميائية تنثرها على مسار حركتها يفهم منها المنتمون لقرية النمل المراد منها، وغيرها من الآيات القرآنية التي تضجّ بكل جديد في عالم المعرفة، ما زالت الحياة قائمة، فمن أين لمحمدﷺ ذلك لولا الوحي الإلهي من السماء، وصدق الإمام علي بن أبي طالبؑ حين قال في صفة القرآن العظيم: (ثم أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه، وسراجاً لا يخبو توقّده، وبحراً لا يُدرك قعره، ومنهاجاً لا يضل نهجه، وشعاعاً لا يظلم ضوؤه، وفرقاناً لا يخمد برهانه، وتبياناً لا تهدم أركانه)[٥٨]، فوصفهؑ بقوله (لا يخبو توقدّه) أي لا تنتهي معانيه، وانه غضٌّ جديد إلى يوم القيامة، فقد تنزل الآية في مورد أو في شخص أو في قوم، ولكنها لا تختص بذلك المورد، وإنما يكون ذلك المورد جزءً من دلالتها، فهي عامة المعنى[٥٩].

(٥٨) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٠/ ١٥٢ –الخطبة ١٩١.

(٥٩) ظ: البيان في تفسير القرآن، الإمام القاسم الخوئي: ٢٨.

المبحث الثالث

هيمنة الحدث وتداعيات لغة النص في سورة الرحمن

بعد أنْ استعرضْتُ مجمل السياقات الخارجية التي تحاصر النص المتمثل بسورة الرحمن؛ من حيث أسْباب النزول، والبعد الزماني/ المكاني للسورة، فضلا عن البعد اللغوي المتمّثل بانتماء لغة سورة الرحمن إلى لغة قريش وعدم وجود تأثير من لغة بني حنيفة التي من المفترض ـ بحسب من يدّعي تأليفها أو بعضها من قبل مسيلمة الكذّاب ـ أن تكون هذه اللغة حاضرة في مجمل السورة المباركة، وذلك أن البعد الاجتماعي والثقافي في النص لا بدّ أن يكون حاضراً فيه، لأنّ اللغة في حقيقتها جزء من بنية أوسع هي بنية الثقافي/ الاجتماعي[٦٠]. وان البنية اللغوية لا تؤدي وظيفتها الدلالية بعيدة عن البنية الأوسع.

إذن البنية اللغوية الخاصة هذه تمثل جزءً من النظام اللغوي العام الذي

(٦٠) ظ: النص والسلطة الحقيقة، د. نصر حامد أبو زيد: ١٠٩.

يحكم النص وهذا الأمر يأخذ إلى تعدّد مستويات السياق الداخلي، الذي يؤدي إلى تعدّد مستويات الخطاب فيحرص بذلك على إيجاد تعددّية باللغات الثانوية داخل النص، وهذا مما يدعو إلى تنوّع الخطاب. فضلا عن ذلك، فان قراءة النص، هي الأخرى تأخذ بتعدّد الخطاب وأنماطه الداخلية، وبالتالي يؤدي إلى ظهور تأويلات متعددة للنص الواحد، غير أن هذه التأويلات لا تخرج عن الإطار اللغوي الاجتماعي -الثقافي المتعدّد الوجوه.

الذي يبدو من ذلك أن هذا التعدّد والاتساع يكسب النص الديمومة والبقاء واستيعاب المتغيرات في المجتمع الذي ولد فيه النص، وقد يتجاوزه إلى مجتمعات أخرى، ربما يكون لها حظ أوفر من الأولى من الثقافة والاطلاع والفهم.

هذه الخصائص التي يمتلكها مثل هذا النص لا تكون بالضرورة متوفرة في كل النصوص اللغوية. ولكن وجودها ربما يكون بدرجات متفاوتة. فالنص القرآني عندما نزل على النبي محمدﷺ قد هيمن على كل النصوص الأخرى الموجودة آنذاك كالشعر والنثر المتمثل بالخطب البليغة التي نثرها خطباء العرب من نحو قس بن ساعدة الإيادي وغيره.

إنّ تلك النصوص الشعرية والنثرية كانت تعبّر عن البعد الثقافي والاجتماعي للعرب آنذاك، فهي لازمة ثقافية-اجتماعية لهم، وكانت الاشعار تحمل قيم ذلك المجتمع حتى عدَّ الشعرُ ديوان العرب ومرجعهم في حلِّ كثير من الاشكالات ومنها فهم بعض آيات القرآن الكريم وألفاظه، وليس معنى هذا أنّ القرآن قاصر عن إيصال دلالاته ومعانيه إلى المتلقي أو المخاطب بل أن القرآن جاء بنسق ثقافي متطور عن النسق الثقافي الجاهلي المتمثل بالشعر وغيره من الفنون النثرية، وربما أن الشعر كان يمثل ذاكرة العرب فهو أقرب إلى الفهم من غيره.

سورة الرحمن وتداعيات هيمنة حدث الصلح:

لم يمر حدث صلح الحديبية بين المسلمين وقريش مروراً عابراً من

دون أن يستثمر أيدلوجيا، إذ إنَّ هذا الاجتماع الكبير الذي وقع في الحديبية، وجمع المسلمين بقريش بعد فراق طويلٍ دام سنوات، لأبدَّ أن يكون له صداه في القرآن، بعد أن أنكر سهيل بن عمرو معنى قوله تعالى: بِسْمِ الله الرحمن الرَّحِيمِ وطلب أن يكتُبَ محلّها «باسمك اللهم»(٦١)، فنزل قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾[سورة الرحمن: ١-٤] إلى آخر السورة المباركة.

ابتدأ الله تعالى فيها معرِّفاً بـ(الرحمن)، ولم يكن (الرحمن) ذاتاً مجهولاً عندهم، بل كان الجهل في صفاته، بدليل تساؤلهم عن ذلك بـ(ما) الدالة على الصفات في قوله سبحانه: ﴿ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾ [سورة الفرقان: ٦٠]، ولم يسألوا بـ(مَنْ) الدالة على الذات لأنه معروف لديهم، فأوضح ما أبهم عندهم فقال: ﴿ ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾، فجعل أول صفاته تعليم القرآن، ومتعدّياً بالفعل (علّم) إلى مفعول واحد (القرآن)، مع غياب المفعول الثاني، ذلك لأجل أن يكون هذا الحذف موضع تساؤل بين الناس، إذ أن السليقة اللغوية عند فصحاء العرب ومتعلميهم وشعرائهم ترشدهم إلى وجود شيء قد جعل مغيّباً ومسكوتاً عنه، فهنا يبدأ البحث عنه، فمن علّمهُ اللهُ تعالى القرآنَ، أهو النبي محمدﷺ أو الملائكةُ أو أيّ آخر؟.

ولّما كان النبيﷺ هو ألصقُ أحدٍ بالقرآن، وهو المسؤول عن تبليغ الرسالة السماوية إلى الناس كافة، فيكون هو المعنيّ بهذا التعليم، وإنْ تعدّدت الآراء والتأويلات في ذلك وإن اختيار الرسولﷺ مُعلِّماً للقرآن يُعطي زخماً كبيراً للرسالة السماوية، بوصفه موضع القيادة والموجّه لتنظيم حياة الجماعة المسلمة، خلافاً لقريش التي تعدّدت فيها مواضع القوى والقيادة، وكأنه يومئ إلى ضرورة توحيد القيادة للمجتمع، وأنّ تفتُّتَ القيادات سيؤول إلى الضعف، الذي برز واضحاً في خضوع قريش ومجيئها للصلح مع النبيﷺ في السنة الثامنة من الهجرة

(٦١) ظ: تاريخ الطبري، الطبري: ٢/ ١٢٢-١٢٣، البداية والنهاية، ابن كثير: ٤/ ١٧٥.

النبوية المباركة، فجاءت قريش مذعنةً صاغرةً لا تلوي على شيء، إلا مجرد حفظ ماء الوجه بطلب رجوع المسلمين في ذلك العام إلى المدينة وعدم دخولهم مكّة عنوة، لأنَّ ذلك من شأنه أن يغضّ من قدر قريش في قبائل العرب، فحفظ لهم رسول الله ﷺ ذلك، فرجع من فوره إلى المدينة ومن تداعيات هذه السورة أيضاً أن قال: خَلَقَ الإِنسَانَ، فجعل مِنْ خَلْق الإنسان قريناً لتعليم القرآن، أي أنّ تعليم القرآن يعدل خلق الإنسان، وليقول إن هذا القرآن الذي يعلمه النبيَّ للناس يرنو إلى خلق إنسانٍ آخر ممتلىء بقيم اجتماعية وأخلاقية تعمل على إحيائه وبعثه من جديد، فالقرآن ليس مجرد ألفاظ تقرع الأسماع، والعربي كان يعي هذه المسألة بسليقته اللغوية، إذ أنّ إيحاء هذه الألفاظ بهذه الدلالة لم يكن غريباً عليه، ولا هو قاصر عن إدراك هذه المعاني؛ لأنّ العربي في صحرائه كان يستنشق كل هذه الإيحاءات الصادرة عن الكلمات والعبارات فليس بغريب عليه فهم ذلك، فاستغل القرآن ذلك بإنزال هذه السورة على هذا الحشد البشري من المسلمين وقريش ليرشدهم إلى هذه الخصلة من القرآن الكريم، سواء كان إيحاءً أم إيماءً أم غير ذلك.

هذه الدلالة الإيحائية التي تحملها الألفاظ لم تكن غريبة عن أذهان الناس آنذاك؛ لذا فأنّ اقتران الإنسان بتعلّم القرآن يوحي بدلالة كبرى تؤسس لفكرة لم تكن معهودة لدى قريش، إذ جعل من ملازمة القرآن واصطحابه مقترناً بالحياة وتركه يؤول إلى الموت والفناء.

هذا الدفق الدلالي في أول سورة الرحمن، حفّز الأذهان لما سيأتي بعدها، فأخذ تعالى يبيّن صفات عزّته ومنعته وقوّته بنسقٍ سياقي واصفاً كلّ ذلك بقوله: ﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴾[سورة الرحمن: ٥ –٧]؛ وفي غمرة ذلك اتجه إلى نسقٍ سياقي آخر بالتنبيه والنهي عما لا يجوز فعله وعمله فقال: ﴿ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ

﴿ٱلۡمِيزَانَ﴾[سورة الرحمن: ٨ -٩]؛ ثم يعود إلى سياقه الأول في قوله سبحانه تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾ [سورة الرحمن: ١٠]، إلى الآية الخامسة والأربعين من السورة ذاتها.

ثم ينتقل القرآن إلى نسقٍ سياقي آخر يختلف عمّا سبقه ابتداءً من قوله سبحانه تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[سورة الرحمن: ٤٦]، إلى آخر السورة، معدِّداً فيها نعمه التي يسبغها على عباده الصالحين ومخوّفاً فيها غيرهم من الكافرين.

بيد أن هذه الآيات وإن جاءت على نسقٍ سياقي عام واحدٍ مشحون بالكرم الإلهي إلا أن هذا الكرم يختلف من جنةٍ إلى أخرى، وبتطوّرٍ متسارع من خلال الوصف لكل جنتين من الجنان الأربعة، حتى ليبدو من هذا الوصف أنها متشابهة، إلا في بعض الألفاظ القليلة، لكن الذي يمعن النظر في النص يجد أن هناك فوارق كثيرة ربّما غابت عن كثير من عقول المفسرين، وعلماء التفسير، فضلا عن المتحذلقين ممّن لا يرى إلا نفسه في أيِّ نصٍّ قرأه أو أطّلع عليه، وبمقارنة بسيطة بين وصف الجنان الاربع نجد أن مواصفات الجنتين الأوليين أفضل منها في الأخريين(٦٢)، وهو رأي ابن عباس؛ وبعضهم ذهب إلى خلاف ذلك(٦٣).

ولعلَّ في مجيء لفظة (جنتان) على سبيل التنكير يومئ إلى كثرة مراتب الثواب، فابتدأها تعالى بالجنتين وما فيهما من نعمٍ وخير، وما أن ينتهي منهما حتى يبتديء بالجنتين الأخريين فيصف ما فيها بما يفوق ما في الأوليين من الخير والنعيم، بتساوقٍ وتدريجٍ من القليل إلى الكثير، وهذا إنّما يدلّل على الكرم الإلهي، لأنّ الكريم لا يوصف بالكرم ما لم يعط في الثانية أكثر من الأولى، واذا حدث العكس سقطت صفة الكرم بسبب الامساك في الثانية.

وأظن أن الذي دعا بعض المفسرين إلى القول بأن الجنتين الأخريين هما دون الأوليين في الزينة -مجيء (دون)

(٦٢) ظ: الكشف والبيان، الثعلبي: ٦/ ٢٣٥.
(٦٣) ظ: الكشاف، الزمخشري: ٤/ ٤٥١، مجمع البيان، الطبرسي: ٥/ ٢١٠، التفسير الكبير، الفخر الرازي: ٢٩/ ٣٧٩.

التي توحي في ظاهرها إلى الدونية في الرتبة والدرجة؛ بيد أن (دون) قد تأتي ظرفية أو غير ظرفية. وذكر لها العلماء تسعة معانٍ[٦٤]، فهي تكون بمعنى قبل، وبمعنى أمام ووراء، وبمعنى تحت وفوق، وبمعنى الشريف، وبمعنى الأمر، وبمعنى الوعيد والإغراء؛ ويتجلى كل معنى من هذه المعاني بالقرينة الدافعة لغيرها من المعاني الأخرى، وللتحقق من دلالتها، أن لو قارنّا بين الوصفين لهذه الجنان الاربع لوجدنا الفارق واضحاً بينهما في كل وصف فيها، إذ تجد الوفرة والكثرة في الثانيتين مقارنةً بالأوليين، فوصفهما بأنها ﴿ ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ﴾، أي ذواتا أغصان، على نظام متناسق واضح، في حين كان وصف الثانيتين بأنها ﴿ مُدۡهَآمَّتَانِ ﴾ أي يعلوهما سواد من خضرة بسبب تشابك أشجارها وأغصانها لكثرتها، بسبب من وفرة مائها، إذ يقول: ﴿ فِيهِمَا عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ [سورة الرحمن: ٦٦]، أي فوّارتان، خلافا للأوليين إذ وصفها تعالى: ﴿ فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ﴾ [سورة الرحمن: ٥٠]، ويستمر التفاوت بين الجنان بالفاكهة وأنواعها، وأنواع الفرش؛ ومجالسها، وحسان الجنة وخيراتها، فوصف الحسان في الأوليين بأنهن قاصرات الطرف، أي قصرت ألحاظهن على أزواجهن ولا ينظرن أو يرين غيرهم[٦٥]، في حين زاد في وصف الحور العين في الجنتين الأخريين، بأنهم خيرات حسان، وهذا لا يعني خلو الأوليتين من هذه الصفات، لكن ذكره تعالى لزيادة الصفات المناسبة في الكثرة فيهما؛ في قوله تعالى: ﴿ حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ ﴾ [سورة الرحمن: ٧٢]. وذهب أحدهم إلى أن (الخيام) جاءت لفظة مقحمة على النص، وهي خارجة عنه تماماً، لأنّها لفظة بدوية في حين كان السياق العام ينحو منحىً ريفيّاً، من خلال ذكره تعالى لألفاظ الشجر الفاكهة، النخل ذات الاكمام) والحب

(٦٤) لسان العرب، ابن منظور: ٤/ ٤٥١.

(٦٥) ظ: الكشف والبيان، الثعلبي: ٦/ ٦٤، المحرر الوجيز، ابن عطية: ٥/ ٢٣٣، الجامع لأحكام القرآن القرطبي: ١٧/ ١٧١.

ذو العصف والريحان[٦٦].

وهذا غير صحيح فلو تتبع المعجم العربي لوجد أن (الخيام) تتسق تماماً مع ما ذكر من المناخ الريفي المفعم بالشجر والنخيل وغيرها من المزروعات، لأن أصل دلالة الخيمة في العربية أنها (أعواد تنصب في القيظ وتجعل لها عوارض وتظلل بالشجر وتكون أبرد من الاخبية... وقيل الخيم: ما يُبنى من الشجر والسعف يستظل به الرجل إذا أورد إبله الماء... والخيمة عند العرب البيت والمنزل، وسميت خيمة لأن صاحبها يتخذها كالمنزل الأصلي)[٦٧].

وبهذا فهي ليست مقحمة على السياق العام لأنها تنصب من منتجات المناخ الريفي، غير أن الرجل توهّم فخلط بين الأخبية والخيام فجعلهما بمعنى واحد، قال ابن منظور: (الخباءُ من الأبنية: واحد الأخبية، وهو ما كان من وبر أو صوف، ولا يكون من شعر... وقال ابن الأعرابي: الخباء من شعرٍ أو صوف، وهو دون المظلّة... والخباء من بيوت الأعراب)[٦٨].

إذن استعمال لفظة (الخيام) كان دقيقاً في موردها من هذه الآية المباركة، ومتفقة تماماً مع سياقها العام.

فضلا عن ذلك فأنّ لفظة (الخيام) توحي بمعنى أخر وصفة أخرى للحور العين المقصورات فيها، وذلك أن أصل التخييم هو الإقامة[٦٩]، فمجيء لفظة (الخيام) بقصد الدلالة على إقامة هذه الحور العين فيها، فهنَّ غير جوّالات ولا خرّاجات ولا ولاّجات، وهذه صفة في النساء كانت العرب تمتدحها بملازمتهن البيوت.

وتكون هذه صفة أخرى مضافة إلى الجنتين الثانيتين لم توجد في الأوليين، إذن نستنتج من كلِّ ذلك أن تفوّق هذين الجنتين على ما سبقهُنَّ يصلح أن تكون قرائن تأخذ (دون) إلى معنى الفوقية والشرف والتقدّم على غيرها، وهذا

(٦٦) ظ: مسلمة الحنفي، جمال علي الحلاق: ١٠٢-١٠٣.

(٦٧) لسان العرب، ابن منظور: ٤/ ٢٦٩. خيم.

(٦٨) م. ن: ١/ ٢١ -خبا.

(٦٩) ظ: م. ن.

من معانيها، كقولنا: إنّ فلاناً لشريف، فيجيب آخر فيقول: ودونَ ذلك، أي فوق ذلك[٧٠].

وعوداً على بدء، نقول إنَّ النصّين في وصف الجنان الاربع لم تكن مختلفة سياقيّاً، لكنها مختلفة في الدلالة، إذ إنَّ لكل نصٍّ منهما له دلالته التي تختلف عمّا سبقها من خلال تطوّر معاني ودلالات ألفاظها، بما يناسب المقام الذي ترد فيه ومحاكاة البيئة الحاضنة للنص، واحتضان كل ذلك في سياق واحدٍ يتطوّر بتطورهما من الأقل إلى الأكثر بما يُناسب المقام، ومحاكياً فيه جموع الحاضرين يوم الحديبية، من مسلمين وكافرين، ليشعرهم بأهمية الإيمان المتعلّق بحياة الإنسان، من خلال تداعيات هذا النص المبارك ومحفزاً لهم؛ بأسلوب لم تغب في ألفاظه قيم المجتمع وثقافته، ومحاكياً لتصوراته، آخذاً بأيديهم من عالم البؤس والشقاء والرذيلة إلى عالم الهناء والسعادة والفضيلة، بل إلى عالم الحياة غير المنقطعة بين الأرض والسماء، وبين الحياة وما بعد الموت. في رحلةٍ يضيق فيها الخيال على الحقيقة الإلهية في مظاهرها الدنيوية وتأويلات مجاز الفعل الأخروي المنطوي على الحقيقة الحقّة.

ولاستكمال ارتباط جزئيات السياق مع بعضها، لا بُدَّ من أن نعرّج على دلالة قوله سبحانه: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[سورة الرحمن: ٧٣] إذ إنّ هذه الآية المباركة قد تكرّرت -إحدى وثلاثين مرة في سورة الرحمن ـ ثمان مرات منها في وصف الجنتين الأوليين، وثمان أخرى في وصف الجنتين الثانيتين مبيّناً فيها كرمه على عباده الصالحين، والباقي منها وردت في سياق بيان قوله (تعالى) وعزته ومنعته، واصفاً كل مفردات العزة، والمَنَعَة والكرم بأنها من آلائه سبحانه، فما أن يذكر واحدة منها حتى يقول: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [سورة الرحمن: ٧٣]، وهذا يوحي أنّ هذه الآلاء مختلفة بعضها عن بعض، وإن جاءت باللفظة نفسها، فهذا التكرار لم يكن في حقيقته تكراراً معنوياً لفظياً،

(٧٠) ظ: لسان العرب، ابن منظور: ٤/ ٤٥١، (دون)، معاني النحو، د. فاضل السامرائي: ٢/ ١٨٣.

بل هو تكرار لفظي لا غيرها لاختلاف دلالات آلائه سبحانه من آية إلى أخرى، فأعطى بذلك لهذه اللفظة قابلية الخزن الدلالي لكل هذه المعاني والدلالات التي ذكرها القرآن الكريم، وهذا من عظيم نظمه، وقوة لفظه وتمكنّه من استيعاب كل الدلالات المطلوبة.

إنّ تكرار هذه الآية يمثّل قواعد استناد لعموم النص المبني على أسس المنعة وتطورها في عزته وقوته ومن ثم كرمه. إذ إنّ كل بناء يحتاج إلى ما يثبت قواعده وأسَسه وان تتفاضل تلك الأبنية بمثبتاتها، فجعل نصفها في تثبيت دعائم عزته ومنعته وقوته، ونصفها الآخر في تثبيت دعائم كرمه، والله تعالى في كل ذلك جاء بها واصفاً ذاته (الرحمن) في أول السورة.

وممّا يستنتج من ذلك أيضاً أن اسمه تعالى (الرحمن) في هذه السورة لم يَعنِ به ذا الرحمة لأن الرحمة تقترن دائماً بالرقة والشفقة، في حين جاءت صفات (الرحمن) هنا دالة على القوة والمنعة والعزة، وان اقتران العزيز والقوي والمانع بالكرم أليق من اقترانه بالرقّة والرحمة، وهذا يعدُّ من تداعيات هذه السورة على المجتمع المحصَّل في الحديبية، وبيان ذلك لقريش التي كانت تتعالى على المسلمين في عزتها وكرمها، فتفوّق الرحمن سبحانه على كل ذلك من خلال خطابه الشامخ ليرسم بأبعاده هذه فكراً يعمل على تشكيل العقل العربي-الإسلامي، وليثري الأبعاد الأخرى في الفكر الإسلامي وليشكّل في بنيته هذه عقلاً عربياً إسلاميا موحِّداً لشتات العرب في تخوم الجاهلية الجهلاء.

المصادر

- الإتقان في علوم القرآن، تأليف جلال الدين السيوطي، ضبطه وصححه وخرج آياته محمد سالم هاشم -دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م).
- أسباب النزول علماً من علوم القرآن، د. بسام الجمل/ المؤسسة العربية للتحديث الفكري، المركز الثقافي العربي، الطبعة الاولى، ٢٠٠٥م، بيروت، لبنان، المملكة المغربية، الدار البيضاء.

- إعجاز القرآن، للباقلاني أبي بكر محمد بن الطيب (ت٤٠٣هـ)، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، ط٥، د. ت
- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م، ١٤٢٥هـ.
- تاريخ اليعقوبي، تأليف أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي، ارصاد، بيروت.
- تفسير الكشاف، أبي القاسم جار الله محمود الزمخشري الخوارزمي، اعتنى به وخرّج أحاديثه وعلقّ عليه خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
- الضعفاء الكبير، تأليف أبي جعفر محمد بن عمر بن موسى العقيلي، تحقيق الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الاولى، ١٩٩٥م.
- الفكر الإسلامي، قراءة علمية/ محمد اركون، تعريب هاشم صالح، مركز الانماء القومي، بيروت، ١٩٨٩م.
- الكامل في ضعفاء الرجال، تأليف عبدالله بن محمد بن أحمد الجرجاني، تحقيق يحيى مختار غراوي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.
- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المتقي الهندي، دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد-١٣١٣ هـ.
- لغات القرآن المروية عن ابن عباس، محمد أبن علي المظفر المروف بأبن الحنفي، علق عليه أ. د. عبد الرحمن مطلق الجبور، د. ابراهيم عبود السامرائي، دار المسيرة، عمان-١٤٣٠هـ-٢٠١٠م.
- مسلمة الحنفي، قراءة في تاريخ محرم/ جمال علي الحلاق، منشورات الجمل، الطبعة الاولى، ٢٠٠٨م.
- مفاتيح الغيب -فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي -دار الكتب العلمية -بيروت -لبنان- الطبعة الاولى.
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال/ شمس الدين الذهبي، تحقيق الشيخ

علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الاولى، ١٩٩٥م.

- الناسخ والمنسوخ -أبي القاسم هبة الله أبن سلامة أبي النصر (على هامش كتاب أسباب النزول للواحدي) عالم الكتب، بيروت.
- النص وآليات الفهم في علوم القرآن، دراسة في ضوء التأويلات المعاصرة/ د. محمد الحيرش، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الاولى، ٢٠١٣م.
- النهاية في غريب الحديث والأثر/ للإمام مجد الدين أبي السعادات (ابن الأثير)، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، إيران، قم، مطبعة شريعت، الطبعة الأولى، ١٤٤٦هـ.
- البيان في تفسير القرآن، الإمام السيد أبو القاسم الخوئي، منشورات دار العلم للإمام السيد الخوئي، النجف الأشرف، مطبعة العمال المركزية، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م. مجمع.
- البيان في غريب إعراب القرآن، أبو البركات بن الأنباري، تحقيق طه عبد الحميد طه، مراجعة مصطفى السقا.
- تأريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢١هـ -٢٠٠٠م.
- التبيان/ لشيخ الطائفة أبي جعفر الطوسي (المتوفي سنة ٤٦٠هـ)، تحقيق أحمد حبيب قصير العاملي.
- تفسير البحر المحيط، تأليف أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الشهير بأبي حيان الاندلسي الغرناطي (ت٧٥٦هـ)، تحقيق د.عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٣هـ -٢٠٠٢م.
- تفسير القرآن العظيم، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي(ت٧٧٤هـ)، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٩م.
- جامع البيان في تفسير القرآن، تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري،

دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ١٩٨٠م، ١٤٠٠ هـ.

- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن احمد الأنصاري القرطبي، راجعه وضبطه وعلّق عليه د. محمد إبراهيم الحفناوي، خرّج أحاديثه محمود احمد عثمان، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
- دفاع عن القرآن ضد منتقديه/ د. عبد الرحمن بدوي، ترجمة كمال جاد الله، الدار العالمية للكتب والنشر.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧٢هـ)، قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٥، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الآلوسي أبو الفضل (ت١٢٧٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.
- شرح نهج البلاغة/ ابن ابي الحديد المعتزلي/ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم.
- كشف والبيان في تفسير القرآن، للإمام العلامة أبي إسحاق احمد بن محمد بن إسماعيل الثعلبي(ت٤٢٧هـ)، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت٩١١هـ)، ضبطه وصححه احمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د. ت).
- مجمع البيان في تفسر القرآن، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، تحقيق الحاج السيد هاشم الرسولي المحلاتي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٣٧٩هـ.
- المحرر الوجيز، تفسير الكتاب العزيز، للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب، بن عطية الاندلسي (المتوفى سنة ٤٤٦هـ)، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد/ دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الاولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.